صورة المرأة في ديوان نضال القاسم " الكتابة على الماء والطين"(*)

د. ليندا عبد الرحمن عبيد

أستاذ مساعد، جامعة اليرموك

الملخص:

تتناول هذه الدراسة صورة المرأة في ديوان الشاعر نضال القاسم "الكتابة على الماء والطين "، لما لها من حضور لافت في ديوانه، محاولة للإمساك بصورها المتعددة، وصلتها الوثيقة بذات الشاعر، وتشكيله الثقافي والفكري والنفسي.

وقد اتخذت الدراسة منهجا تحليليا نصيا في تناولها لصورة المرأة داخل الديوان، لاستجلاء تمثلاتها، وتوضيح دلالاتها وملامحها، ضمن تصور يعنى بالشكل والمضمون معا ، للوقوف على ما تشي به النصوص الشعرية المتوائمة داخل بنية الديوان لتقول مقولتها ورؤاها وتصوراتها دون إغفال لثراء مدلولات صورة المرأة، وأبعادها الإنسانية العامة، والخاصة المتعلقة باغتراب المثقف الفلسطيني، وتشظياته بفعل غيابه عن وطنه.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة تبين مشكلة البحث وأهدافه وأهميته، والدراسات السابقة المتناولة لتجربة نضال القاسم الشعرية، مرورا بتمهيد يتحدث عن المرأة في الشعر القديم والحديث، بوصفها عنصرا حاضرا ومهيمنا داخل الخطاب الشعري العربي.

وصولا إلى جزء تطبيقي يقف عند صور المرأة في الديوان، وانتهاء بخاتمة تستعرض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحية: صورة المرأة، نضال القاسم، ديوان الكتابة على الماء والطين، شعر، القرن الواحد والعشرون

(*) **مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٨٢) العدد (٦) يوليو ٢٠٢٢.**

The Image of Women in Nidal Al-Qasim's "Writing on Water and Mud"

Dr. Linda Abdel Rahman Obaid,
Assistant Professor, Yarmouk University

Absrtact

This study deals with the image of the women in the poetry of Nidal al-Qasim "Writing on Water and Mud". Because of her remarkable presence in his poetry, the study attempts to highlight her multiple images, her close relationship with the poet, and his cultural, intellectual, and psychological formation. The study relies on a textual analytical approach in dealing with the image of women within in the poems, to clarify their representations, connotations, and characteristics. With a focus on both content and form, the study attempts to shed light on the harmonious poetic parts within the poems without neglecting the richness of the meanings of the image of women, and their general and specific human dimensions related to the alienation of the Palestinian intellectual, and its fragmentation due to his absence from his homeland. The study includes an introduction which states the problem of the research, its objectives and importance, and the previous studies dealing with the poetic experience of Nidal al-Qasim, with a preface that discusses women in ancient and modern poetry, as a present and dominant element within the Arab poetic discourse. The applied part in the study deals with the images of women in poems. The study ends with a conclusion in which the most important findings of are listed.

*__Keywords__: Women's image, nidal alQasim, the poem writing on water and mud, twenty-first century.

المقدمة:

أطلت المرأة بصور متعددة داخل ديوان الشاعر نضال القاسم[1] "الكتابة على الماء والطين"، فظهرت مرة بصورة المرأة الملاذ/الوطن، ومرة بصورة المرأة الخصب/ الجسد، ومرة حاملة لصورة امرأة أطلت من فضاء غريب في ظروفه السياسية والثقافية والطبيعية والاجتماعية، وقوفا عند تجربة الشاعر الثقافية والحياتية الغنية.

وقد تفاوتت هذه الصورة في حجم حضورها داخل الديوان، فقد تمددت بعضها وهيمنت، في حين انحسرت أخرى، بما يتلاءم مع دواخل الشاعر وتوتراته النفسية واختناقاته وإحساسه بالاغتراب .إذ تتعاضد هذه الصور فيما بينها لتشي بما تحسه الذات الشاعرة من تشظيات واغتراب، بفعل الظروف السياسية والاجتماعية، وبعده عن فضائه المكاني الأول الممثل بالوطن.

وتتكئ الدراسة على منهج تحليلي نصي، في قراءة النصوص وتحليلها، وتتبعها لصورة المرأة داخل الديوان ،ضمن رؤية تحتفي بالشكل والمضمون معا للإمساك برؤى الشاعر وتصوراته تجاه الذات ،والإنسان عموما.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد، ثم جزء تطبيقي يتناول صور المرأة وتمثلاتها داخل الديوان، وانتهاء بخاتمة تعنى بأهم النتائج.

مشكلة الدراسة:

تقوم مشكلة الدراسة على تساؤلات مفادها: ما صور المرأة في ديوان " الكتابة على الماء والطين" لنضال القاسم؟ وهل للشاعر موقف ثابت من المرأة؟ وهل كان حضور المرأة في الديوان قائما على البعد الذاتي أم اتسع إلى مداه الإنساني الرحيب؟ وهل توقف الشاعر عند صورة المرأة الحسية بشكلها المباشر، أم تعداها إلى صور تحمل أبعادا فكرية وثقافية ورمزية؟

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة، كونها تتناول صورة المرأة في ديوان الشاعر نضال القاسم " الكتابة على الماء والطين"، لما لها من حضور لافت في هذا الديوان، إضافة إلى غنى تجربة الشاعر الإبداعية، وكذلك إلى كونه أحد رواد حركة شعراء نيسان التجديدية[٢] التي ظهرت في الأردن، وتعبر عن طموح أفرادها إلى خلق أعمال إبداعية شعرية، تعنى بالتراث، وتستوعبه، آخذة منه ما يناسب رؤاها في سعيها لعصرنة اللغة الشعرية، وربطها بالتجربة والطبيعة والأسطورة والوقع، بانبثاقات لغوية طازجة، وبحث دائم عن شعرية الأشياء لا شعرية اللغة فقط. ومن هنا فإننا نجد الشاعر يتكئ على مخزون وافر من الثقافة، وتراث يمنحنا القدرة على التناص الواعي مع اللحظات الشعرية العالية في تاريخ اللغة والشعر دون أن نكون فرائس لهما. فشعراء حركة نيسان عموما، ونضال القاسم على وجه خاص، يتنفسون هواء التجديد الذي أنجزته هذه الحركة المتمردة على القوالب التقليدية ، والنماذج الجاهزة، مما يجعل الشاعر أكثر قدرة على الغوص في الواقع المعاصر ومواضيعه، التي سينظر إليها بطريقة مختلفة ، عن الشاعر التقليدي القديم.

وثمة أهمية أخرى متأتية من أن الموضوع لم يتناوله أحد قبلا، بدراسة متخصصة إلا في ثنايا دراسات عامة حول تجربة نضال القاسم، أو عل شكل مقالات غير متخصصة في الصحف والمجلات الثقافية.

الدراسات السابقة:

- قراءة في أحزان الفصول الأربعة لأماني بسيسو
- عالم نضال القاسم الشعري لمحمد صالح عبيد
- الفضاء الفلسفي في شعر نضال القاسم لسلطان الخضور
- منازل المعنى في شعر نضال القاسم لحسام العفوري

- التشكيل الرومانسي في شعر نضال القاسم لأحلام هزاع
- الالتزام في شعر نضال القاسم لمحمد قواسمة
- قراءة في قصيدة اوديسيوس الجديد لسلطان خضور

التمهيد:

إن الإبداع وسيلة المبدع لنسج رؤاه وتصوراته، والبوح بما يكتنف دواخله من مشاعر وأفكار. يصور قبح الواقع بغية التأريخ للجمال ، كما ترتئيه ذات المبدع وكما تريده، وكما تحسه؛ فالإبداع هو التمرد في وجه الاستلاب والتشوه، وهو ثورة كامنة التفجر في وجه العبودية، وكل ما يمس إنسانية الإنسان. وهو الطريقة الفضلى لصياغة الذات وتشكيل صور الآخر وتمثلاته، ليصير الإبداع مرآة تعكس واقع المجتمع ، ودواخل الذات المبدعة المتأثرة بتقلباته الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. فتطل المرأة ملهمة للقصيدة، وباعثة للخصب والحياة، وهي التوق والملاذ التي تتسع بمفاهيمها ومداها لتصير مؤشرا إلى توق الإنسان إلى الحياة ، وأرقه وخوفه من الجدب والفناء.

إن المرأة عنصر هام داخل الخطاب الشعري، فالكون قائم على الثنائيات الضدية ظاهراً، والمتكاملة في عمقها لصياغة هذا الوجود. والحياة قائمة على الجدل بين هذه الثنائيات، سواء على المستوى النفسي أو الفكري أو الاجتماعي؛ فالموت والحياة، الفرد والجماعة، والحزن والفرح، والحب والكراهية، الخصب والجدب، والرجل والمرأة، فكل مظاهر الحياة تأتي نتيجة لذلك التجاذب بين خطي الثنائية وصولاً إلى محاولة للانتصاف إلى طرف منهما. وإذا تمعنا في النفس الإنسانية المنعكسة في النصوص الإبداعية لوجدنا أن الحالات النفسية المتضادة يوضح بعضها بعضاً، وبضدها تتميز الأشياء، وقانون التضاد أحد قوانين التداعي والتقابل .[٢]

وتتفاوت المرأة بدرجة تنفسها وحضورها داخل القصيدة الشعرية

وفقاً لإمكانية الانفراج والتنفس المتاحة ،والمتناسبة طرديا مع طبائع المجتمع، والحرية المتاحة فيها للشاعر والمرأة.

وهي المرأة الوطن والحبيبة التي تشارك الشاعر الحلم، وكل ما يدنس الحقيقة والجمال، فتصير مناجاتها ثورة في وجه القبح والموت، وهي لهب الغواية، وهي الوطن في غياب الفضاء المكاني، وهي التوحد الذي يتوق إليه جسد الشاعر العطش، بفعل ما يحيط به من صور الموت والخراب الدي خلقته سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية، وما خلفته الحرب من اغتراب وتوحش في دواخل الإنسان، إلى جانب كونها مقدمة القصيدة التي توصل الشاعر إلى غرضه الشعري، فتصير وسيلته للتأريخ للمكان ، وللجمال، وللإنسان ككل .

المرأة بين الشعر القديم والحديث

إن الشعر ديوان العرب كما جاء في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلّام الجمحي (ت٢٣١ه)، إذ يقول: "إنّ الشعر العربي ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه ينتصرون" [٤].فقد كان الشعر يسجل الحروب، والأحداث التاريخية، ويصور المجتمع. وهو مقياس الفصاحة والبلاغة والبيان، وبمثابة وسائل الإعلام في الواقع المعاصر، يرفع من قدر فلان، ويحط من قدر فلان، و قد كان الشعراء يتنافسون بتجويد نصوصهم، و بالتقرب من السادة والملوك والأمراء والوزراء ليعلو شأنهم. وقد كان الوسيلة للتعبير عن الحب، وعن التعلق بالمرأة والتوق إليها؛ فالغزل من أهم المواضيع عند العرب.

لقد دأب الشعراء على وصف جسد المرأة، باعتباره جسداً يشكّل حضوراً وفعلاً ايجابياً؛ فالجسد ليس مجرد حيز في المكان، بل هو رؤية ونقل للذات إلى الوجود[٥]. وهو قيمة جمالية نظر إليه الشاعر نظرة مبنية على مخيل شعري مليء بالمعاني ، إلى درجة أنه أسبغ عليه صفات جمالية مثالية فائقة، قد تُعطي صورة معنوية أكثر مما يراها الآخرون بها[٦]، ومن ثم

أبدعت اللغة في النصوص الشعرية باستحضار ووصف جسد المرأة، "والحقيقة أنه لم يحدث أن استخدمت الثقافة (آلة الجسد) مثل استخدامها للجسد المؤنث، فهذا الجسد كان ولا يزال مادة للنشاط الثقافي، في بعده الخيالي، وبعده اللغوي.[٧]

"فمن الجانب اللغوي، فإنّ الجسد الأنثوي، وعلى مستوى حضوره عند الشعراء، يتمظهر بوصفه موضوعاً بلاغياً ، تمارس فيه الثقافة ممارستها الإبداعية اللغوية، وتستخدمه من أجل هذه الغاية إلى درجة يبلغ معها التوظيف البلاغي للجسد المؤنث حدّ الغيرة،، والاستنكار على أي توظيف بلاغي للجسد،إذا لم يكن للأنثى.[٨]

وقد استأثر الجانب الحسي بصورة عامة باهتمام كثير من شعراء الجاهلية، مثل امرئ القيس الذي عمد إلى وصف جسد المرأة بتفاصيله، فالجسد عند الشاعر القديم كان مصدر الخصب والجمال،لأنه في تصوره سرّ الحياة والبقاء والوجود."و قد أدرك الشعراء جمال الجسد بحكم نزعتهم الحسية في تذوق الجمال[٩]

استحوذ الغزل على اهتمام العرب؛إذ يعبّر عن التعلّق بالمرأة، والاشتياق إليها. وقد احتفت النصوص الشعرية بالمرأة وتفاصيلها الجسدية، فالشاعر القديم وإن تناول الجوانب المعنوية للمرأة، إلا أن الجانب الحسي قد هيمن على قصيدته الغزلية، "فالشاعر القديم كان ينظر إلى امرأته من خلال ملامح الناقة والفرس"[١٠] اللتين تملآن عليه حياته، وتشكلان حواسه، فالشاعر يستقي أوصافه من البيئة، والفرس والناقة تتصفان ببنية جسدية عظيمة، وترتبطان بالشاعر ارتباطاً وثيقاً.

فقد افتتن الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي بمظاهر الجمال الروحي والجسدي للمرأة، رغم توقفه أكثر عند الجانب الجسدي في حركته وسكونه، فالشاعر الجاهلي كان لا يشهد غير المرأة في حياته الرتيبة، مما يسوغ هذا الاحتفاء الشعري بالمرأة.

وفي عصر صدر الاسلام، ظلت المرأة تتصدر القصائد؛ فنجدها في مقدمات القصائد، عند الشعراء الذين عاصروا الرسول – صلى الله عليه وسلم – من مثل : حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وغيرهما. وتذكر السيرة النبوية قصة إسلام الشاعر كعب بن زهير الذي علم أن النبي – عليه الصلاة والسلام_ أهدر دمه لهجائه اللاذع للإسلام والمسلمين، ولما جاء ليعلن إسلامه، قال قصيدته التي استهلها بقوله:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها عالم لم يفد مكبول

واستطرد في وصف سعاد إلى أن وصل إلى الاعتذار إلى النبي –عليه الصلاة والسلام– وقيل إنّ النبي خلع بردته، وألبسها له قبولاً منه لهذا الشعر(١١) وفي العصر الأموي انتقل المجتمع العربي، بعد أن مهّد له عصر صدر الإسلام ،من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضّر، وفي ضوء هذه النقلة الحضارية تغيرت مكانة المرأة في المجتمع.

فلم تعد المرأة تستهل بها القصائد فحسب، بل صارت تحتل قصائد كاملة، في الأغلب. وظهرت فئة من الشعراء اتخذت قصائدهم محور امرأة واحدة، وهي المرأة الحبيبة المتفردة، وقد أطلق عليهم اسم الشعراء العذريين . وقد تغنى هؤلاء الشعراء بالصفات المعنوية للمرأة أكثر من الجسدية. وأطلت المرأة في العصر الأموي بصور متنوعة، فهي الأم والزوجة، والطفلة، والجارية. وكذلك أطلت وقوداً للعصبية بين القبائل،فإن تعرضت للسبي فذل وقهر ما بعده ذل، وفي حمايتها والذود عنها عز وإباء . فتصدرت المرأة قصائد المدح والهجاء،وقصائد النقائض. "فهي المرأة الحبيبة، وربة الحسن والدلال، وملهمة الشعر، وتمثل صورتها في القصائد النموذج المثالي "الذي كان يحلم به الشعراء، فيكشفون بذلك عن ذوق العصر، وإحساسه الجمالي، وصبوته إلى الجسد المكتمل أنوثة" .(١٢)

فقد حظيت المرأة في العصر الأموي، بعناية فائقة بجانبيها الجسدي والمعنوي، وظهرت في الشعر السياسي بصورها الرمزية، وتفاوتت بين

الحضور اللافت، أو الحضور الهامشي المتحفظ.

وفي العصر العباسي، ظلت المرأة تطل بصورتها المثالية الجسدية المنتقاة التي تعد امتداداً للعصور السابقة، إذ ازدهرت الحياة الثقافية والفكرية، وتجلّى ذلك في تمازج ثقافات متنوعة، وفي قرائح مبدعين تمثّلوا وعي تلك الثقافات، وخصوصية الواقع المعيش، فكان شعرهم صدى لعصر تألق فيه الإبداع العربي.

إن معظم الصور التي قدّمها الشعراء العباسيون للمرأة هي استمرار للعصور القديمة الممتدة ، من العصر الجاهلي حتى عصرهم، دون أن يطرأ أي تغيير عليها، مما يؤكد أن الكمال هي الصفة الأساسية التي يبحث عنها الشعراء في المرأة[١٢]" وقد أنصب اهتمامهم على الجانب الحسي أكثر من الجانب المعنوي . وسواء كانت المرأة متخيلة، أو حقيقية، وسواء كانت موضوعاً قائماً بذاته، أو مقدمة للقصائد، فإنها كانت تهيمن على القصيدة، وتشير إلى توق الشاعر القديم إلى صورة الجمالي المثالي المتفرد عند المرأة، بوصفها باعثة الخصب والحياة.

وعند الوقوف على صورة المرأة في الشعر الحديث ،فإننا نقف عند تجربة شعرية وثقافية وسياسية مختلفة تماما، مما يترتب عليه تغييرا كبيرا في تناول المرأة داخل القصيدة.

إن صورة المرأة في حركة الحداثة الشعرية غير واضحة وضوح صورتها في الكلاسيكية والرومانسية، فالمرأة هناك موضوع قائم بنفسه، يسعى الشاعر إلى توضيحه من خلال التحليل أو التركيب والكشف عن الإحساسات الدفينة، وبيان العلاقة القائمة بينهما، بينما صارت في القصيدة الحديثة مستوى من مستويات القصيدة، ومتداخلة مع موضوعات عدة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وهي رمز أو معلم من معالم الحياة، يستخدمه الشاعر في مواجهة معالم أخرى في بناء قصيدته بناء عضويا دراميا متكاملاً.

وقد بدأت المرأة في هذه المرحلة الشعرية تدخل بحلة جديدة مختلفة عن الصورة التقليدية التي أخذتها في الشعر العربي لتكتسي طابعا جديدا أكثر كثافة وحضورا .(١٤)

فالفن لون من ألوان التعبير عن الواقع الاجتماعي بكل تغيراته، ولذلك فقد بدأت تظهر طروحات في القرن العشرين تدعو إلى التغيير والنهضة، إثر تغير الظروف السياسية والمجتمعية. وعلى اعتبار أن الشعر هو من أعرق الفنون عند العرب، فقد شكّل ساحةً لصراع الأفكار والاحتمالات التي برزتْ على المسرح السياسي العربي، وبدأتْ المرأة في هذه المرحلة الشعرية تدخل بحلّة جديدة مختلفة عن الصورة التقليدية التي أخذتها في الشعر العربي القديم. "وقد تبدت المرأة داخل القصيدة الشعرية أكثر وعيا، ولم تعد مجرد صورة تقليدية تدور حول وظائفها البيولوجية، بل صارت محملة بدلالات واسعة كثيفة، بل وتحمل أبعاد إنسانية ووجودية عامة.(١٥)

ولعل التغير في صورة الغزل داخل القصيدة، كان نتيجة لسوء الظروف السياسية والاجتماعية التي انعكست على واقع المجتمع وقيمه، فقد هيمن القبح والاستلاب والتشيؤ، والإحساس بالاغتراب والهزيمة على داخل الشعراء، وتقلصت آمالهم وتطلعاتهم، فأسقطوا حزنهم على القصيدة، واتخذ بعضهم من المرأة بديلا عن الواقع. بينما راح آخرون يفقدون إيمانهم بإمكانية الحب، وبالتالي اليأسى من إمكانية التغيير في الواقعين الاجتماعي والسياسي. ولذلك فالمرأة في القصيدة العربية المعاصرة لا يمكن تسطيحها بوصفها جسدا فقط، بل صارت منظومة من العلائق والأحاسيس المتداخلة، والرؤى والتصورات لدى الشعراء.

وفي المقابل نجد من يصور المرأة من خلال الأسطرة في شعره بأن يقدم لها صورة كما يحبها هو أو كما يحلم بها، حيث يقول عمار عكاش: فقد

تحولت الحبيبة في معظم الأحيان إلى حلم ، من خلال الأسطرة التي تعكس محاولة الشاعر رسم تصور معين لأنثاه مفتقد في الواقع.(١٦)

ولذلك فإننا نجد المرأة في زمن الإنهاك والتشظي صارت وطنا ورحما يحتوي الذات الشاعرة، وتفر إليه من اغترابها وخيباتها وانكسارها وهزائمها. وهي امرأة راشحة بالبعث والامتلاء والخصوبة المتبدية من ملامحها الشكلية الجسدية ، وهي الملاذ حين يتزايد الخواء والإنهاك.

وقد اندمج موضوع المرأة في حركة الحداثة ، أو في القصيدة الحديثة مع موضوعات أخرى ، وصار يعبر عنها من خلال الرمزية، ولذلك فإن صور المرأة في القصيدة العربية الحديثة جسدتها المواصفات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وكلها مواصفات أرادت للمرأة أن تكون صورة لأسرار الحياة والمجتمع، وقد اندمجت مع الموضوعات الحداثية الأخرى وتنوعت بذلك دلالاته.(١٧)

إن المرأة في الشعر العربي المعاصر، لا تقتصر على صورة المرأة الجسد، وإن أطلت في مرحلة ضمن هذه الصورة، بل تتبدى أسطورة تعيد التوازن إلى الأشياء بعد أن عم الخراب الكون.

صورة المرأة عند نضال القاسم في ديوانه "الكتابة على الماء والطين"

إن نضال القاسم في ديوانه الأخير "الكتابة على الماء والطين" يكتب بوحه ورؤاه وتصوراته ومواقفه، ويرسم على الورق صورة لنفسه وللآخر، يخربشها على الماء مرة، ويحفرها على الطين مرة، ليفتش عن ذاته المتشظية التي تحيا انكسارات وخيبات كثيرة ، بفعل الغياب عن فضائه المكاني الممثل بالوطن، بما يشكله من عالم الطفولة وموئل ذكريات، إضافة إلى كونه رحما تنعم الروح به بالهدوء والسلام. فالشاعر يكتب على الماء ويمحو، ثم يمشي ويكتب، ثم يمحو، ثم يحاول الكتابة على الطين متشبثاً بما يستطيعه من الكتابة والحياة ليتوكأ عليها في محنة الاغتراب، ومواجهة صور الخراب التي تهيمن على كل شيء حوله.

فمن الماء والطين كان الإنسان، ومن الإبداع والكتابة والبحث عن الذات بعثت الروح فتشكل الخلق الابداعي سهلاً عصياً يؤتي أكله بكف كل ممتلك لأدواته مستطيع.

تهيمن صورة المرأة، بشكل لافت على ديوان "الكتابة على الماء والطين"، والمرأة بحكم طبيعتها وخصوصيتها المتأتية من الدور الذي تفرضه عليها المجتمعات الأبوية تتفاوت بدرجة تنفسها ،وحضورها داخل القصيدة الشعرية ، وفقاً لإمكانية الانفراج والتنفس المتاحة والمتناسبة طرديا مع طبائع هذه المجتمعات ، والحرية المتاحة فيها للشاعر والمرأة. إذ تحكم بعض المجتمعات قبضتها على المرأة، وتحصرها في أدوارها الجسدية، دون أن تمنحها فرصة لتحقيق كينونتها وهويتها. وتطبق هذه المجتمعات قوانينها على المبدع أيضا، وتراقبه وتحاصره، فتحد من مساحات الحرية لديه، في البوح والتعبير، والإبداع يمتح من الحرية، ويتغذى عليها، وهو فعل تمردي، على اختلاف سطوع هذا الفعل أو خفوته، يعبر الشاعر من خلاله عن رؤيته إزاء ذاته، وإزاء المجتمع، والعالم، والكون. ولذلك نجد المرأة في كثير من القصائد توحي بتوق الشاعر إلى الحرية، ويصير التشبث بها صورة من صور الرفض والتمرد، كما هو الحال لدى نضال القاسم.

إنّ المرأة عند نضال القاسم ليست مجرد شكل أو جسد، وليست أيضاً مضموناً خاوياً دون جسد، إنما هي تطل من هذا التمازج الرفيع الذي يعد انعكاساً لتجربة الشاعر الذي يريد أن يقولها، وأن يشكل صورتها ليرسم ذاته ودواخله، وليبوح بنفسه ضمن واقع متعذر لا يمنح مساحة حرة للبوح، فيظل مختنقا ، ولا ينعتق مما يوجعه ،ويثقل صدره.

أولاً: المرأة الملاذ/ الوطن:

إن الذات الشاعرة تعاني تشظيات كثيرة يصعب لملمتها لخلق فسيفساء خاصة، إن فتشنا عنها بعيداً عن نصوص الشاعر التي ينبغي أن ينظر إليها وحدة واحدة، كما تعبر عنها العناوين الداخلية أو العتبات النصية؛

فنضال القاسم يمثل في نصه صورة العالم الداخلي للمثقف الفلسطيني في اغترابه ومنفاه، يؤرقه الشتات والبعد عن الوطن، وإحساسه بثقل الواقع السياسي بإحباطاته وأزماته، فيعيش ضمن هذا الخراب والتشوه، فيخلق بفنه امرأة تشكل وطناً بديلاً تعويضا عن فقدان المكان، بما يمثله من طفولة ورحم، وهذا المكان المميز بالنسبة إليه لا تكونه إلا امرأة متفردة مثالية ،تشكل ملاذه المرتجى. فتتداخل لديه المرأة بالوطن، والوطن بالمرأة، فما أن يتحدث عن الحبيبة حتى يستذكر الوطن، ويبدأ باسترجاعه، واسترجاع تفاصيله. وما أن يتحدث عن الوطن حتى يتداخل بدفق الحب، والحديث عن المرأة الحبيبة التي تشكل ملاذه وفراره من شجن الحنين، والإحساس بالفقدان. فالخراب والعقم والاغتراب والانكسار والتشظي يعزز الاحتياج إلى امرأة استثنائية، كما تطل من دواخل الشاعر الملتاع. فتكون المرأة الوطن، أو الوطن البديل إثر استشراء الخراب ، وتعذر الرجوع إلى الوطن. والمرأة الملاذ تتفتح في ديوان الشاعر شيئاً فشيئاً، تخبو ثم تتقد، تلمع مثل نجمة يقبض عليها، ثم تنفلت، فيلاحق طيفها بحثاً عن كينونته وهويته المؤرقة.

يقول:

هي نجمة حمراء ساحرة بلون الشمس /ونجمة الفجر الضحوك/ أغنية الرياح/ هي نجمة الأحد الحزينة/ نجمة الوطن البعيد/ ونجمة الدرب المخضب .[١٨]

فتطل المرأة على شكل نجمة مدهشة. وتشير النجمة إلى الوطن البعيد، وكذلك إلى معاناته ، في بعده عن فضائه المكاني ، ويطل ذلك من حديثه عن الدرب المخضب بالجراح، يحملها الشاعر ما به من حزن ، فتصير شبيهته حينا، وملاذه حينا آخر، ضمن حلم كامن يتفجر في تشظياته بالعودة والرجوع الى الفضاء الأول.

إن الإنهاك بالخواء، والدم المراق والأشلاء، والبلاد المقفرة، والإحساس بتوحش الصحراء والرمل، وحضور الخفافيش التي تنذر

بالخراب، والدروب الموحشة في ذيول المنفى، وما به من ضياع ورفاق سوء ونزوات تجعل الشاعر يوغل بالبحث عن الحقيقة وسط هذا السراب الذي يشكل تيهه، فتتجلى له الحقيقة بصورة امرأة ملاذ، يقول:

عاثر/ منهك/ مشتاق/ يسكنني الخواء/ ودم يراق/...../ وأمر مشبوب الحنين لتبزغي قمراً/ بلادي مقفرة/أحلق/صحراء/ كثبان رمل/سديم/نجوم/خفافيش/وغيلان من كل فج عميق/سماء قاحلة/ وأعبر رحلتي/ يدي بضة راعشة/ دروبي موحشة/ جبهتي سمراء..../ وأمر يسكنني الذبول والمنفى...../.(١٩)

وتتشكل صورة المرأة الحقيقة/ الملاذ راشحة بالخصوبة والأنوثة والجمال، كما يطل من قوله "يا موارة بالخصب/ يا مجبولة بدمي/ شوقي إليك يهزني /في البال أنت/ في البال يا طعم الحقيقة في فمي/ إني إليك بلا حدود أنتمي/ فضعي يديك على جبيني/ وامسحي ألمي/ردي إلى تحيتي وتبسمي.... .(٢٠)

فهي الموارة بالخصب والمجبولة بدمه، ويعلن صراحة انتماءه إليها لتصير مسيحه المرتجى ودرب انعتاقه من الألم.

وتتسع ملامح المرأة الملاذ، إذ يدعوها الشاعر ضمن وصف يتصاعد به إيقاع الغضب شيئاً فشيئاً، وتتكامل به عناصر الحركة والصوت ضمن ايقاع واحد يتصاعد مع حالة الشاعر الداخلية إلى أن يمتزجا معاً بحالة توحد صارخ يخلقه الألم فيعويا معاً، ويصرخان تفجعاً وتفجراً ، واشتراكاً في الاغتراب والمصير.

يقول :

رعد/جلجلة/ دخان/ ونجمة بزغت بلا استئذان/ في هذا الفضاء الرحب/ أذكت في دمي البركان/غصن أخضر شفاف يرشح بالزبرجد والعقيق/عينان زرقاوات من حبق ومن ريحان/عينان مدهشتان/بوجهها الوردي ينكشف

الحجاب/لصوتها طعم الكمان/هي هكذا/هي شهقة الفجر المضرج بالندى والكهرمان.../ نهر من البارود يجري في دمي / وأنا وأنت مسافران تقدمي/ نمضي معاً/ ذئبان يصطحبان/ خلف البحر والأشواك والورد/.../ تقدمي/ نعوي معاً.(٢١)

ويزداد الغضب والتفجر في عوالمه الداخلية ، ضمن لحظة مائجة يشتاق بها الى الحرية، كما يرتئيها، وتتكامل صورتها في أعماقه لتصير ملاذه، ويتعاظم الاحتياج إليها.

إني أريدك حرة/ كالموج كالطوفان.(٢٢)

وتزداد المرأة الملاذ/ المرأة الوطن تفرداً لتتناسب من جهة مع تميز فضائه المكاني الغائب، ولتتناغم من جهة أخرى مع حجم الخراب والضياع الذي يحياه، إذ يقول في وصفها:

غصن أخضر شفاف يرشح بالزبرجد والعقيق/ عينان زرقاوان من حبق ومن ريحان/ عينان مدهشتان/ لوجهها الوردي ينكشف الحجاب/ لصوتها طعم الكمان/ هي هكذا في شهقة الفجر المضرج بالندى والكهرمان /هي رعشة الناي المعذب بالأماني/ هي هكذا في الأفق شمس أشرقت وهاجة/ قدسية الألحان٢٣.()

وتتمازج في هذه الصورة ملامح امرأة يضفي عليها الشاعر قداسة اللحن، فتعلو على بقية النساء؛ فهي الشمس الوهاجة، ولصوتها طعم الكمان، وهي شهقة الفجر. وواضح أن الشاعر يمزج بين صور الجمال الشكلي المتفرد بالعقيق والكهرمان، وصور الخصب والحياة، بقوله "شهقة الفجر، الندى، الرعشة،" وبين إضفاء صفات الألم المختلطة بتفردها، ما يجعل منها شبيهة للشاعر الذي يعي كينونته، ويمتلك وعيا بوصفه فناناً ومثقفاً يمثل أبناء جيله، ويفتش عن ملاذه بعيدا عن الاغتراب.

فالفجر مضرج بالندى، والمرأة رعشة لناي معذب، ولصوتها طعم

ناي بإيقاعه الحزين .والخصب رديف الحياة، وتوق للفرار من الموت، والحزن يتناسب مع عوالم الشاعر المفتقد لوطنه، ويحيا وجع الانفصال القسري عنه، والذي تشكل المرأة في قصائد ديوانه بديلاً عنه.

إن المرأة الملاذ عند نضال القاسم تطل بمحاذاة توحش المنافي ؛ فالذات الشاعرة المثقفة تعي اغترابها واحتياجها الى البيت، فيخلق من المرأة ملاذا يطل من فضاء عواصم ومدن مختلفة، ولا يعنى كثيراً بذكر اسمها؛ فالاسم هوية وانتماء، والشاعر ليس معنياً إلا بالتهويم هنا وهناك بحثاً عن ملامح امرأة تكون له هوية وملاذا وكينونة، يلم ملامحها الدائخة في عواصم كثيرة. والشاعر لا يذكر أسماء كل الأمكنة لأن المكان إن لم يكن فلسطين، فهو بالنسبة إليه مجرد اتساع للدوائر الاغتراب والتيه، ويتشبث الشاعر بسيفساء نساء كثيرات في أمكنة متباعدة لمداواة جراحه، ومحاولته للتشبث بأمل ليحيا. يقول:

أنا أول الحب/ أنا حفنة من رماد/ ولا بيت لي/ أحتمي بالمنافي/ غربتي لاضفاف لها.../ وإني انتظرتك/ كلي لهفة/ قرحت قلبي الرمال الحارقة/ كأني عاشق ظمآن أرقه الغياب/فاجأني المساء، إني أعترف...[٢٤]

إن المرأة الوطن امرأة تشارك الشاعر الحلم وكراهية الخيانة والمنافي، وكل ما يدنس الحقيقة، وتبعث في جسد الحياة الخصب. إن نضال القاسم يميز امرأته المتفردة ، ويسمح لها بعكس غيرها أن تطل بالقصيدة بصوتها ،بالاتكاء على ضمير المتكلم، فنزداد قرباً منها، ونسمع هذيانها، فنعي تميزها كونها امرأة حرة شبيهة بالرحم الأول/ الوطن.

يقول: إلى مطلع الضوء خذني/ إلى الشطان/ هب لي صوتك الرعوي والمبحوح/هب لي كفك البيضاء/ هي لي غابة بيلسان/ فقد لوثتني

المنافي/ ولحم الخنزير/ والغربة القاسية.[٢٥]

تقول: سئمت التفاصيل والأقنعة/ سئمت البلاد التي لا تثور على الجوع والخوف كالزوبعة/ سئمت الشعوب الذليلة والخائفة.[٢٦]

وهذه المرأة لا يمكن الا أن تكون شبيهة للشاعر فقط، فهي الوطن الذي يشكل مرآته، ويرى نفسه وأرضه من خلاله عند استرجاعاته للطفولة فيه، يقول:

" المرأة المفاجأة/ تلك التي لها نداوة الصباح /والتي تركت على غصن الحقيقة زوبعة.[٢٧]

والوصول الى هذه المرأة الملاذ يشبه المرور بعذابات المتصوفة، وتدرجهم في سلم العارفين يترقبون وينتظرون ويقرؤون كل ما حولهم بحثاً عن الذات العليا . والشاعر هنا يبحث عن المرأة الوطن/ المرأة الملاذ التي يزداد العطش إليها كلما ضاقت الغربة وعذاباتها عليه، ينتظر ويفتش ،ويعاني ويترقب بحثاً عن لحظة تجل وتكشف يتوحد بها مع فتاته التي يمسك بها للحظة ، ثم سرعان ما تنقشع وتغيب:

وجه تسلل ثم غاب/ قمر ضبابي/ وشمس ساطعة.[٢٨]

ويصف انتظاره وتوقه للحظة التجلي، إذ يقول:

في حطام المساء/ وبعد ما طال انتظاري/ للبحر قادتني بلا جدوى خطاي/ بللني اصطخاب الموج/ بللني الرذاذ / لكنني انتظرت على الشط حتى الدجى/ وقلت: تجيئين وردية اللون ممزوجة باللظى والغواية خلابة ناصعة/ وقلت تجيئين في لمع البروق مجنونة حانية.[٢٩]

والشاعر الباحث عن الملاذ يدرك أن الوصول صعب، فالمدى حالك والانتماءات مشوهة، والحب الحقيقي في المدن الجديدة محض عطش: كنت

كالعاشق ظمآن/ أصارع وحدتي/ وما حولي أحد.[٣٠]"

إن العاشق في ديوان الكتابة على الماء والطين مثقل بهموم الوطن، وهموم المنفى والغربة، فضل الطريق الى الحب. وكلما أطل عليه الحب مثل نجمة مدهشة انطفأ وتاه من جديد. فتصير الكتابة على الماء بديلاً؛ يكتب ثم يمحو، يفتش عن ذاته ليلتقيها، تتلاشى فيكتب من جديد، يسطر عوالمه ثم يمحو ، ويكتب من جديد.

تماماً مثل متصوف عاشق طال انتظاره رغم ما أوتي من أسرار ومقدرة تساعده على حل الحجب والمغاليق إلا أنه يمشي على الماء، ويكتب لتصير الكتابة ملاذه ووسيلته المتحضرة التي يفتش من خلالها عنه وعن وطنه، وعن امرأته الملاذ دون أن يصل.

ثانيا: المرأة الخصب:

إن المرأة الخصب هي الحبيبة والمنجية من الموت، وهي لهب الغواية وشجر الغواية، وفيض الحقول والجنون والتوحد الذي يتوق إليه جسد الشاعر العطش ، بفعل ما يحيط به من صور الموت والقتل والدم ؛ فالديوان يتحرك بين ثنائيي الحياة والموت، والعقم والخصب. فتأتي صورة المرأة الخصب مكتملة الأنوثة، ريانة الجسد، وتتبدى بصورة امرأة مغوية، ترشح عطرا وفتنة، فتطل ألفاظ الرغبة والجسد والخصب والشبق، ويزداد الدفق الشعري جرأة في وصف ملامحها الجسدية.

يزدحم الديوان بألفاظ دالة على الخصب والحياة من مثل قوله،" الغواية، أخضر، حناء الندى، الماء، الرعشة، الرجفة، اللهب، يرشح، بض، نابض، النار في شرياني، الطوفان، نيراني ريانة، طازجة، بللني الرذاذ، اللظى، نجمة حمراء، صهيل، ممشوقة، نافرة، الصخب، العطر الفواح،

تأرجح البركان، نهر.... الخ.

ويضج الديوان بألفاظ الموت والقحط والعقم من مثل،" الفقر، صحراء، سديم، خفافيش، غيلان، سماء، قاحلة، القبلات، الهائمة، الريح، الأنواء، البرد، ظمآن، الخواء، القيظ، انطفأت، الأعياء... الخ".

وبالمقارنة بين ألفاظ الخصب المقترنة بصورة المرأة المتفجرة، بجسدها الاستثنائي التي يشتاقها جسده العطش ، بفعل المنافي وحرارة الاغتراب، سنلمح أن حجم ألفاظ الخصب يفوق ألفاظ الموت والعقم، مما يشير إلى كون الشاعر مفعم بالأمل رغم استشراء كل هذا الموت والخراب حوله، يقول بآخر صفحة من الديوان مؤذنا بالانفراج والانعتاق مما يوجعه مؤرخاً لرؤيا جديدة لخصب يطل ، وإن تأخر:

"الحزن أوله وطن /وآخره انتظار/ والعصافير تضيء المسارات بين الصباح /وبين الضحى/ تعيد الى الصحب أحلامهم /وتفتح باب النهار."[٣١]

ويتعلق إحساس الشاعر بأنثاه الجسد التي تطل عبر صور جسدية لا تصل الى مستوى الحسية المفعمة الفاحشة حين يتوحد بها ،رغم كون حضوره مبرراً، بالتناسب مع حجم العطش، والقتل والدم ،والخراب في الكون من حوله.

فمن قوله لحظة الاندغام والحب:

لوح من الصلصال يغرق في التراب/ عشب ظامئ للماء يلهث/ نهر ينحني/ بين صفين من خصب ودفلى وبلاد مستعارة.[٣٢]

ولعل حضور البلاد المستعارة في هذا السياق المحتقن بالرغبة والشبق ، يجعل من الرغبة مرتكبة ومن الاندغام ناقصاً رغم تدفق العطش. فالغياب عن الفضاء المكاني الأول هو مكمن المعاناة والوجع، وحضور

البلاد المستعارة لا يخفف هذا الوجع، بل يجعل الارتواء متعذرا، والولادة والخصب مستحيلا، فالإحساس بالعقم يهيمن على دواخل الذات الشاعرة، فالنهار يتجلى بين صفين من دفلى وبلاد مستعارة.

إن العطش إلى الحياة وإلى الجسد ، بما يمثله من نقيض لصورة الموت، يجعل الشاعر متنقلاً بين نساء كثيرات، مما يضعنا في شك بمصداقية الحب؛ فالتوق هنا الى الجسد فقط فرارا من مفاهيم الموت التي تحاصر الفلسطيني في منفاه وفي وطنه. فالفلسطيني محتقن بصور الموت وبشاعتها، يتوق إلى الانفلات منها، ولا يستطيع.

يقول: نساء كثيرات يملأن قلبي/ انتظرت طويلاً/ وكنت اتكأت على نرجس من أتون الحقول/ نساء كثيرات ولكنه الحب أعمى / وفي كل يوم جنون جديد.(٣٣)

ولا أكثر صراحة على هذا التخبط والضياع بفعل العطش ،من قوله: تعبت من المشي والحب والوزن القافية.(٣٤)

ويرسم نضال القاسم المرأة الجسد دون تهتك أو غرق في عشق الجسد تاركاً إحساسه بجمالية الأشياء، فإن جنون الرجل التواق لهذه المرأة يظل دائماً في دوائر الإحساس والجمال؛ فالجسد والنبض عنده لا يلتقيان ، حتى وإن كانا لحظة عابرة، فالشاعر يمس الأشياء، يشمها ويحسها موظفا كل حواسه، وقدرته على اختزان التفاصيل بعد تتبعها، لكنه لا يستطيع أن يصل بها إلى مستوى الفعل الحقيقي المتوقع، فالشاعر يحب الحياة، ولكنه لا يستطيع أن يحياها، بفعل نكوصاته الداخلية إلى الماضي، وإحساسه العميق بالاغتراب.

"إني أحب الحكايات ريانة طازجة إني أحب الشتاء والكستناء والسرو

والإيقاع والحناء//وإني منذ أعوام أحلم بالطيور المضيئة والشموس".[٣٥]

يقول واصفا إياها:

ممشوقة ونافرة /ألقت القبض على قلبي صباحاً فارتعشت/

وأعلنت انتمائي للصهيل وللصخب/لم تكن من بنات القبيلة /فجأة بزغت، ليبدأ في دمي الطوفان/ولست مهيأ للزقزقات الساحرة/صباح الخير قالت بهمس خفيف/هل كان يومك جيدا يا سيدي/من أي قارعة أتيت إلى هنا/ماذا تريد/إني من الشرق البعيد/إني أتيت إلى هنا كي لا أجيب/إني هربت من الهزيمة والخديعة والبلاد المستباحة /والجنود.[٣٦]

والأجمل أن المرأة الجسد، بما تمثله من رغبة وخصب، تتحرك ملامحها أسوة بغيرها في هذا الديوان ،عبر ايقاع سلس عذب رقيق مرهف لا ينفلت من عروض الخليل.

ثالثا: امرأة الفضاء الغريب:

يفر العاشق إلى عواصم عدة بحثاً عن ذاته الضائعة، فيزداد ضياعاً ، فالحب بعيدا عن الوطن في فضاء غريب ،لا يعدو كونه ومضة أو نزوة سرعان ما تنطفئ ، وتنتهي بغير لقاء، ولا تقود إلى خصب أو انجاب، فهي حالة عميقة في أصلها.

يقول: "هنا ضيع القلب آماله الفائتة /هنا ضيع القلب أحلامه وتشظى/ هنا لا وقت للحرب والحب والميجنا/ هنا دوختني الخرائط والقطارات الخفيفة والسريعة/والدهاليز الجديدة والبهية والسفر/شمال خؤون بلا أغنيات/جنوب استوائي من السبت حتى مساء الأحد.[٣٧]

فواضح أن مكان الآخر غريب في مفرداته وثقافه، ومنشغل بأمور أخرى تتعلق بالعمل والكسب، ولا علاقة لها بالحرب أو الحب أو الميجنا،

وهي المفردات التي تشكل فضاءات نفسية ، مما يزيد من الإحساس بالاغتراب والتعب.

ويفر الشاعر من ضياعه إلى الانشغال بجمالية المكان، ورصده لتفاصيل الطبيعة تعويضا نفسيا عن انئزاماته:

"مطر خريفي خفيف،/وموسيقى بعيدة/ وأسراب من الدوري جامحة/ عصافير تزقزق/ أسراب بط/ وأعداد لا تحصى من الغربان/ رفيف عصافير بيضاء/شكل العصافير مختلف هنا/هنا ضيع القلب اماله الفاتنة/هنا ضيع القلب أحلامه وتشظى/هنا للوقت للحرب والحب والميجنا".(٣٨)

وواضح أن الشاعر إذ انشغل باختزان تفاصيل الطبيعة حوله إلا أن عالمه الداخلي وأفكاره تنعكس لتلون جمالية المشهد، فالموسيقى بعيدة، وأسراب الدوري جامحة كما يحبها، وهو المتعب من خوف المنافي وخدرها، وأسراب بط وعصافير بيضاء تتخلله أعداد كثيرة من الغربان تشي بالموت والشر والخراب.

إن الذات الشاعرة واعية لضياعها في فضاء الآخر فبعد بحثها عن المرأة الحقيقية صارت تفتش عن اللحظة الهاربة، يقول:

وأنا أنقب في بلاد الشمس عن أصدقاء / أو عن نجمة حمراء/ او عن فكرة هربت من المذياع /أو تلميذة عذراء ساحرة/ أو عن موجة زرقاء /وأدركت أني أحدق في الخواء في القيظ الشديد/ كي تأتي القصيدة.(٣٩)

فإن كانت النجمة الحمراء تمثل المرأة الملاذ والوطن في الجزء الأول من الديوان، فقد صارت هنا تمثل المرأة الومضة واللحظة الهاربة التي لا تشكل له إلا ملهمة للقصيدة ، دون أن تتغلغل إلى أعماق الذات، وتتمازج من عالم الشاعر النفسي، وتمتزج بتشظياته.

والمرأة الغريبة عن فضائه المكاني خارجة عن قيم القبيلة التي تفرض على المرأة خصوصية معينة في بلاده، تملؤه بعطرها الفواح، وتمنحه بعض الضحك، توقظ بركان الجسد، ثم تلوذ بصمت دون أن تشكل الحكاية؛ فالعاشق يحيا تشظيات وانكسارات هي لا تعيها ولا تشعر بها، فهي ليست شبيهته على عكس المرأة الملاذ، بفعل اختلاف الثقافة والمكان والوجع.

"لم تكن من بنات القبيلة/ فجأة بزغت/ ليبدأ في دمي/ الطوفان /...من أي قارعة أتيت إلى هنا / ماذا تريد.".(٤٠)

إني أتيت من الشرق البعيد/ إني أتيت إلى هنا كي لا أجيب/ إني هربت من الهزيمة والخديعة والبلاد المستباحة والجنود.(٤١)

ويأتي جواب النادلة مختلفة الثقافة على بوحه بعيداً عن مسار توقعه وأفق انتظاره، إذ تقول :هل تريد مزيداً من الشاي بنكهة النعناع؟/ وفجأة غابت /عطرها الفواح غاب/ واستبد بي الهوى/ حاصرتني/ وغابت بلا ثرثرة.(٤٢)

فالجسد حاضر لكنه خاو من الحب، والشاعر عاشق أتى من فضاء بعيد فاراً من منفاه وأوجاعه ليفتش عن الحب بفضاء غريب عنه بمفرداته وثقافته، فيصير الحب ومضة، ولا يقود الى لقاء أو خصب أو اندعام؛ فالوقوف هنا على حافة الرغبة دون الوصول إليها أو اكتمالها.

وتتبدى المرأة في فضاء الاخر بصورة الجسد المتدفق جمالاً والموقظ للرغبة، إلا أن الشاعر لا يقف عند عينيها بوصفها وسيلة التعارف الإنساني الأولى، وبوصفها هوية وبداية للحب، فالشاعر بمجرد أن تغيب المرأة المغوية لا يذكر اسمها ، ولا يعرف لون عينيها إشارة الى كونهما من

فضاء مختلف ،و بهويتين مختلفتين فلا يلتقيان.

وفي قصيدة "سائح في المحطة" يرقب الشاعر أجساد النساء يقول: أنصاف أجساد على الرصيف/ سيقان عارية.(٤٣)

فصورة المرأة هنا جسد محض، بعكس صورة المرأة الوطن، أو المرأة الملاذ، واللقاء بالمرأة هنا هو تماماً مثل محطة انتظار سرعان ما يغادرها العاشق، ويغيب وتغيب.

"غاب طيف العاشق الحلم/ عن عيني وذابا /قال اذكريني واختفى/به العمر شيئا فشيئا فلم أستبنه/مرت الساعة الألف /ولم يأت حبيبي.(٤٤)

إن نضال القاسم في ديوانه "الكتابة على الماء والطين" يشكل صوراً لذاته وللآخر وللكون من حوله، يسطرها على الماء مرة، ويحفرها على الطين مرة، ليفتش عن هويته، ومحاولة للملمة ذاته المتشظية التي تحيا انكسارات وخيبات ،بفعل غيابه عن فضائه المكاني الممثل بالوطن ،بما يشكله من رحم وطفولة؛ فالشاعر يكتب على الماء ويمحو، ثم يحاول الكتابة على الطين متشبثاً بالكتابة والحياة ليتوكأ عليها في منفاه القسري، بمحاذاة هيمنة لصور الخراب والهزيمة والاستلاب

خاتمة

- هيمنت المرأة على القصيدة العربية القديمة، بوصفها واهبة للخصب والمتعة والجمال، فمنذ العصر الجاهلي وحتى العصر الأموي عني الشعراء بأوصافها الجسدية الحسية وفق صورة نمطية واحدة.
- إن صورة المرأة في حركة الحداثة الشعرية غير واضحة وضوح

صورتها في الكلاسيكية والرومانسية، فالمرأة هناك موضوع قائم بنفسه، يسعى الشاعر إلى توضيحه من خلال التحليل أو التركيب ، والكشف عن الإحساسات الدفينة، وبيان العلاقة القائمة بينهما، بينما صارت في القصيدة الحديثة مستوى من مستويات القصيدة، ومتداخلة مع موضوعات عدة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وهي رمز أو معلم من معالم الحياة، يستخدمه الشاعر في مواجهة معالم أخرى في بناء قصيدته بناء عضويا دراميا متكاملاً.

- تطل المرأة في الديوان ضمن تشكلات عدة؛ فمن المرأة الملاذ أو المرأة الوطن التي يتشبث بها الشاعر، ويرسم بها صورة لامرأة مدهشة استثنائية ، فيخلق بفنه امرأة تشكل وطناً بديلاً تعوضه عن فقدان الوطن وتصير ملاذه المرتجى، ويزداد تشبثه بصورتها المطلة من إبداعه ومخيلته الحية بفعل استشراء الخراب والعقم والاغتراب حوله. مرورا بصورة المرأة الخصب المفعمة بالأنوثة النابضة بالحياة، بمحاذاة عالم مفعم بالعقم وصور الموت. وانتهاء بامرأة في فضاء غريب عن هويته وثقافته تظل في دائرة الشبق والجسد، وتنحصر بكونها فضاء للفرار من الضياع ، والبحث عن الذات ، ودون أن تتحول إلى حالة عشقية قادرة على الإنجاب والخصب.

- تغيب صورة الأم في ديوان القاسم ،وتطل بدلاً منها المرأة الملاذ، بوصفها رحماً ووطناً ،وصورة مثالية للمرأة المعشوقة ،بفعل تشظيات وانشراخات نفسية كثيرة خلقتها أزمة الاغتراب.

-تطل المرأة في ديوان "الكتابة على الماء والطين" بلا اسم أو هوية رغم تعدد النساء، وانتقال الشاعر من فضاء إلى آخر بحثاً عنها، بوصفها

باعثة للحياة، وبوصفها بديلاً عن الوطن وغياب الأم. ولعل ذلك مرده الى كون الشاعر يحيا محنة الاغتراب والتيه، وبالكاد يستبين خطاه ويستجلي دربه، فالهوية غائبة، إضافة الى تعذر إقامة علاقة حقيقية تتسم بالأسماء والكينونة والهوية، بفعل العقم والهزيمة والخراب الذي يحيط به من كل الجهات.

–واللافت للانتباه في ديوان نضال القاسم أن المرأة بتشكلاتها المختلفة تطل من مخيلة الشاعر ولغته امرأة كاملة مدهشة في حضورها الجسدي والنفسي، وقد تصل الى مستوى التفرد والاستثناء، بينما يطل الرجل تائهاً بذات متشظية يحيا انكسارات مختلفة يفتش عن مساحة من السلام ولا يستطيعها.

– إن المرأة عند نضال القاسم ليست مجرد جسد، وليست أيضاً مجرد مضمون منفصل عن الجسد، إنما تطل من هذا التمازج العذب الذي يعلو على الطين دون أن يتجرد منه تماماً، ويمس شغاف الروح، بما به من توق ووجع وعطش وبحث عن الذات والسلام الداخلي، ضمن عالم قلق تهيمن عليه صور الاستلاب والموت والتشوه، لتصير المرأة جسداً وروحاً ووطناً وفضاء نفسياً رحباً للبحث عن الهوية والذات، والتوق الى الانعتاق من اغتراب المنافي، والبحث عن الراحة والسلام. ولتكون تعبيرا من جهة ما عن الإحساس بالوجع والاغتراب والإحساس بالهزيمة والخيبة، فالشاعر في ديوانه يمثل صورة المثقف الفلسطيني في منفاه واغترابه وصراعاته بين فضاءاته البديلة من جهة، وبين ارتباطه الوثيق بفضائه الغائب من جهة أخرى، حيث يتواجد الأب والأم، والحبيبة الأولى، والذكريات، والطبيعة البكر، ضمن رؤية إنسانية عامة تدين

القبح والقتل وانتهاك الهوية وإنسانية الإنسان.

- إن الذات الشاعرة متشظية في منفاها، تتحرك بين وجع واقعي، بفعل الإحساس بالتيه والاغتراب، وسوء الأوضاع اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، ووجع آخر يتمثل بحنين وحلم متعذر للرجوع وينعكس ذلك في صور المرأة لديه، واتخاذ منها وطنا بديلا.
- يمتاز هذا الديوان بذائقة فنية رفيعة وبلغة سهلة عصية تتدفق بسلامة وعلو، بمحاذاة دفق عاطفي صاخب يتوارى وراء الجمل، ويتفجر مع انسياب الإيقاع، وجمالية الصور الشعرية، وتماسك الجمل وتعاضد القصائد والعتبات النصية التي تزيد من لحمة الديوان وقوة بنيته التي تزيد من قيمته، حين تحيل الأجزاء الى الكل، ويحيل الكل الى الأجزاء، ببراعة متأتية من تملك الشاعر لأدواته، بمحاذاة غنى لغوي لافت. وتعدد مرجعياته الثقافية والفكرية وسفره وتنقلاته، وغنى لافت لتجاربه الحياتية دون الوقوع في فخ التكلف والتصنع.

الهوامش:

١- نضال القاسم: شاعر وناقد أردني من أصول فلسطينية، ولد في عمان عام ١٩٧٠، درس الاقتصاد في جامعة اليرموك.

٢- ونال جائزة الاستحقاق، وهي إحدى فروع جائزة ناجي نعمان في لبنان عام ٢٠٠٨، وقد صدرت له كثير من الأعمال الشعرية ": أحزان الفصول الأربعة "تماثيل عرجاء"، و "أرض مشاكسة" و "كلام الليل والنهار.

٣- أحزان الفصول الأربعة، بيان شعراء حركة نيسان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، انظر نضال، القاسم، ٢١٠٩، ص٦.

٤- ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمد شاكر، جدة: دار المدني ١٩٥٢

٥- محمد حسين محمود: شعرية الجسد الجاهلي، دار مجدلاوي للنشر، الأردن، ط١، ٢٠١٣، ص٥٣٦

٦- المصدر السابق: ص٦٣٨

٧- عبد الله، الغذامي: ثقافة الوهم (مقاربات حول المرأة والجسد واللغة)، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨، ص٧٠.

٨- المصدر السابق، ص٧٠ .

٩- حمد حسين محمود: شعرية الجسد، ص٣٧.

10- https://ayyamsyria/8mars/2018.net انظر فاطمة محمد: المرأة بلسان الشعراء في العصور الأدبية

١١- المصدر السابق، انظر فاطمة محمد: المرأة بلسان الشعراء.

١٢- انظر فاطمة: تجور المرأة في الشعر الأموي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، ٢٠٠٠. ص ١٠٢ .

١٣- أحمد طعمة، حلبي، انظر مظاهر الجمال الأنثوي في الشعر العباسي، مجلة التراث العربي، الناشر اتحاد الكتاب العرب، المجلد ٢٦، العدد ١٠٢، نيسان ٢٠٠٦، ص٢٣٢ .

١٤- عمار عكاش، "صورة المرأة في الشعر العربي المعاصر، الحوار المتمدن"، العدد:١١٣١-٨/٣/٢٠٠٥

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp.

١٥- . محمد نور الدين، أفاية: الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء. ص٢٣

١٦- الموسى، خليل: حركة الحداثة في حركة الشعر العربي، دمشق، مطبعة الجمهورية١٩٩١، ص٣٢.

١٧- ليال فردان النويس، "صورة المرأة في القصيدة العربية عموما والعراقية خصوصاً

١٨- نضال القاسم، الكتابة على الماء والطين، عمان: دار الأهلية٢٠١٢، ص١٢

١٩- المصدر السابق: ص٢٥.

٢٠- المصدر السابق: ص٢٤.

٢١- المصدر السابق: ص٣٤

٢٢- المصدر السابق: ص٣١.

٢٣- المصدر السابق: ص٣٢.

٢٤- المصدر السابق: ص٣٦.

٢٥- المصدر السابق: ص١٣.

٢٦- المصدر السابق: ص٧٣

٢٧- المصدر السابق: ص٧٤.

٢٨- المصدر السابق: ص٧٤.

٢٩- المصدر السابق: ص٣٩.

٣٠- المصدر السابق: ص٦٢.

٣١- المصدر السابق: ص٧٦.

٣٢- المصدر السابق: ص٦٠.

٣٣- المصدر السابق: ص٢٩.
٣٤- المصدر السابق: ص٢٠.
٣٥- المصدر السابق: ص٣٥.
٣٦- المصدر السابق: ص٥٠.
٣٧- المصدر السابق: ص٤٦.
٣٨- المصدر السابق: ص٤٥.
٣٩- المصدر السابق: ص٤٩.
٤٠- المصدر السابق: ص٥١.
٤١- المصدر السابق: ص٥١.
٤٢- المصدر السابق: ص٥٢.
٤٣- المصدر السابق: ص٦٢.
٤٤- المصدر السابق: ص٦٥.

المراجع:

أفاية، محمد نور الدين : الهوية والاختلاف: في المرأة، الكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.

الجمحي ابن سلام،: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، ج١، جدة: دار المدني، ١٩٥٢.

روابنية حفيظة: صورة المرأة ودلالاتها في ثلاث مقطوعات شعرية جاهلية، نشر في مارس١٩٩٠، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية تصدرها جامعة عنابة– الجزائر، دراسات في اللغة والأدب، ع٨، جوان ٢٠٠١.

عكاش عمار، صورة المرأة في الشعر العربي المعاصر، الحوار المتمدن، العدد:١١٣١–٨/٣/٢٠٠٥.

.http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp

القاسم نضال: الكتابة على الماء والطين، عمان: دار الأهلية ٢٠١٢.

القاسم ، نضال : أحزان الفصول الأربعة ، عمان :دار الأهلية ٢٠١٩

محمد، فاطمة: المرأة بلسان الشعراء عبر العصور الأدبيّة،https://ayyamsyria.net/8/8 مارس/.2018

الموسى، خليل: حركة الحداثة في حركة الشعر العربي، دمشق، مطبعة الجمهورية١٩٩١

النويس، ليال فردان، صورة المرأة في القصيدة العربية عموما والعراقية خصوصا،www.alnoor.se, .2/4/2009

المراجع الأجنبية:

A narration by Hafida, The Image of Women and its Implications in Three Pre-Islamic Poetry, published in March 1990, Journal of Social and Human Sciences, published by Annaba University - Algeria, Studies in Language and Literature, G8, June 2001.

Afayah, Mohamed Nour El-Din: Identity and Difference: In Women, Writing and Margin, East Africa, Casablanca.

Al-Jumhi Ibn Salam: Layers of stallions of poets, investigation by Mahmoud Shaker, Part 1, Jeddah: Dar Al-Madani, 1952.

Al-Mousa, Khalil: The Modernity Movement in the Movement of Arabic Poetry, Damascus, Al-Gomhouria Press, 1991

Al-Nowais, Layal Verdun, The Image of Women in the Arabic Poem in general and Iraqi in particular, www.alnoor.se, 4/4/2009

Al-Qassem Nidal, Writing on Water and Mud, Amman: Dar Al-Ahliyya 2012.

Akash Ammar, The Image of Women in Contemporary Arab Poetry, The Civilized Dialogue, Issue: 3 / 1131-2005 http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp.

Muhammad, Fatima: Women as Poets Through Literary Era, https://ayyamsyria.net/8/8/18/2018.